الفكر الخلدوني وعلم الكلام

أهداف التعليم :

التعرف التعرف على مفهوم علم الكلام

التعرف على الفرق الإسلامية الكلامية

التعرف على موقف إبن خلدون من علم الكلام

يعتبر علم الكلام من بين العلوم الفكرية الرئيسية التي إستخدمتها العلوم العربية الإسلامية ، وتعتمدهذه العلوم على منهج عقلي مميز وعميق ومتصل بمختلف الروافد الفكرية الأجنبية التي غالبا ما كانت نقطة إنطلاق له للمضي قدما في التعمق في هذا الميدان أو في غيره من الميادين .

وقد مرّ هذا العلم عبر مراحل تطوره ، بدءا من نشأته بصورة غير منتظمة عند الفرق الكلامية الأولى ، حتى وصل إلى مرحلة البحث الفلسفي المتكامل عند فرق المعتزلة والأشاعرة والشيعة ، وتبلور فيما بعد عبر مراحل النضج والإمتزاج بالفلسفة ثم التدهور...ومعرفة أعلام هذا الفكر ضرورة واجبة للإحاطة بتراثنا الفكري الإسلامي ، ومن هؤلاء الأعلام المفكر إبن خلدون".قسّمإبن خلدون العلوم إلى قسمين بارزين يتفرع عنهما علوم كثيرة . ويقول عن هذه العلوم أنها هي التي " يخوض فيها البشر ويتداولونها على صنفين ، صنف طبيعي للإنسان ، يصل إليه بفكره ، وصنف نقلي يأخذه عمّن وضعه ، والأوّل العلوم الحكمية الفلسفية ، والثاني العلوم النقلية الوضعية". ويصنف إبن خلدون علم الكلام ضمن العلوم الشرعية النقلية ووضع له تعريفا دقيقا وموجزا حدّد فيه ماهية هذا العلم . هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والردّ على المبتدعة المنحرفين في الإعتقادات عن مذاهب أهل السلف ، وأهل السنة ".من خلال هذا التعريف يمكننا القول أن وظيفة علم الكلام عند إبن خلدون هي الدفاع عن العقائد الإيمانية بإستخدام

الحجج العقلية ، أي أنه يهدف إلى جمع كل الأدلة التي تثبت صحة هذه العقائد الإيمانية بإتباع البرهنة العقلية الضرورية للوصول إلى دحض كل حجج الملحدين والمبتدعين .

يؤكد إبن خلدون على أن موضوع علم الكلام هو العقائد التي تقررت في هذا الدين لكونها أصولا يتعذر قيام الدين بدون التسليم بها بشكل مطلق . ويربط فيلسوفنا هذه العقائد بالأحاديث النبوية التي أجاب عنها النبي صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن الإيمان فكان قوله أن الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشر ،وهذه هي العقائد المقررة في علم الكلام. إذا أردنا أن نعرف موضوع هذا العلم عند إبن خلدون وأصل العقائد نجد يقول:" إعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق فكلفنا أولا إعتقاد تنزيه في ذاته عن مشابهة المخلوقين ثم تنزيه عن صفات النقص وإلا لشابه المخلوقين ، ثم توحيد بالإيجاد ، وإلا لم يتم الخلق للتمانع ، ثم أنه إقتناع أنه عالم قادر ومريد ومقدر وأنه يعيدنا بعد الموت ثم إعتقاد بعثة الرسول للنجاة من شقاء هذا المعاد وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب وهذه أمهات العقائد الإيمانية. وظيفة علم الكلام : حسب التعريف الذي أعطاه إبن خلدون لعلم الكلام وأهم موضوعاته نجد أنه علم يتضمن الحجاج ، أي أنه يتكفل بمهمة الدفاع عن العقائد الإيمانية بإستعمال البراهين والحجج العقلية . وعن سؤال لمن توجه البرهنة وأية فئة تستهدفها ، يؤكد إبن خلدون أن هذا الأمر لا يخرج على إحتمالين ؛ فإما أن تكون البرهنة موجهة للمتدينين أو المخالفين لهذا الدين . وينفي إبن خلدون نفيا قاطعا بأن تكون وظيفة علم الكلام موجهة إلى المتدينين بهذا الدين فيقول أن التوحيد الذي هو محور البحث في علم الكلام من الأمور التي يستحيل أن يصل إليها العقل بالنظر والدليل ، وهي عقيدة تتلقى بالأمر الإلهي ، الوارد في الآيات الكريمة { قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤا أحد }".

أما الإحتمال الثاني فيكون هدف علم الكلام هو الرد على الملحدة والمبتدعة وإستخدم فيه أهل السنة الحجج العقلية عندما إحتاجوا إليها حين تكفلوا بالدفاع والدعم. إذن وظيفة علم الكلام عنده هي تقديم الدليل العقلي على صحة العقائد الإيمانية ردا على الملحدين

والمبتدعين ، لا تأييدا للعقائد بإطلاق ، لأن العقائد عنده أمور مفروض صدقها ، فهي وظيفة موجهة ضد أهل الإلحاد والبدع . أما المؤمنون الثابتون على إيمانهم فليسوا بحاجة إليه". – حدود العقل في معرفة الشرع : يرى إبن خلدون أن العقل لا يمكن أن يحيط بجميع الكائنات وأسبابها ، أو الوقوف على تفاصيل الوجود كله ، وهذا لا يعني إنكار دور العقل ، بل للعقل مكانه ، وللشرع مكانه ، ولكل منهما حدود للإدراك ، فلا تعارض بينهما سوى أن لكل منهما طور مختلف.

فالعقل عاجز من بعض الإدراكات التي تتجاوز المتاح له من معارف ، فيتوالى عليه العجز العقلي في فهم الكثير من الموضوعات . غير أن إبن خلون يقر بأن ذلك امر طبيعي ، والعقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقائق النبوّة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره فإن ذلك طمع في محال. هذا الفهم يؤكد على نقص العقل في إدراك مجال الإلهيات ، والكثير من مسائلها ليست في متناول العقل ولا حتى إمكانية تقديم أدلة عنها أو البرهنة عليها. وهذا في حقيقة الامر يختص به الشرع . فالشارع أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لإطلاعه على ما وراء الحس". غير أن هذا الأمر لا يفهم منه إنكار دور العقل في مجال الإلهيات ورفضه رفضا مطلقا ، بل العكس من ذلك فدوره يتمثل في تلقي الأمور النقلية وتأويلها بالوجه الصحيح . فللعقل " مدخل في الأمور النقلية ولكنه ينحصر في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول ، لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه ، ، فتحتاج إلى إلحاق بوجه قياسي ، إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخير بثبوت الحكم في الأصل ، وهو نقلي فرجع هذا القياس للنقل لتفرعه عنه ".– منهج المتكلم ومنهج الفيلسوف : نظرا للكثير من المحاولات التي قام بها بعض المتكلمين والمتمثلة في تأكيدهم على قدرة العقل في معرفة الأمور الإلهية وإدراك مواضيعها ومن ثمة إلتماس ذلك التقارب بين علم الكلام والفلسفة ، لذا حاول إبن خلدون أن يميّز بين منهج المتكلم ومنهج الفيلسوف في وقت طغى فيه الإختلاط بين المنهجان وإمتزجت قضايا العقيدة بقضايا الفلسفة . وهذا مزج لا يقبله إبن

خلدون لوجود تفاوت بين طريق المتكلم وهدفه ، وطريق الفيلسوف وهدفه ، لأن نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر فيالوجود المطلق ، وما يقتضيه لذاته ، ونظر المتكلم في الوجود من حيث أنه يدل على الموجود .وطريقة الفيلسوف هي إستخدام العقل للوصول إلى الحقائق المطلقة ...أما طريقة المتكلم فهي تقديم أدلة عقلية لأمور تثبت بالنص أولا. وهذا يعني أن علم الكلام يعمل على إثبات حقائق صحيحة وموثوق منها ، أما الفلسفة فهي تعمل للوصول إلى حقائق بمنهج حرة وتفسير دون إلتزام مسبق .

وبمعنى آخر فإن الفيلسوف لا يصل إلى عملية الإقرار بحقيقة ما إلا بعد أن يصل إلى الأدلة العقلية الكافية ، أما المتكلم فهو يقر أولا ، ثم يبحث عن الدلائل المؤيدة لما قرره سابقا ، فإثبات العقائد ليس من عمل المتكلم ، وينحصر دوره في الدفاع عن العقائد بعد فرض صحتها ، وهذا يستدعي التسلّح بأسلحة خصومه ، ويحاورهم بنفي أساليبهم. فالشريعة تعرض كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه ، بمعنى أنها لا تثبت به.

إن موضوع علم الكلام عند أهله هو إنما هو العقائد الإيمانية ، بعد فرضها صحيحة من الشرع ، من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية ، فترفع البدع ، وتزول الشكوك والشبه عن العقائد . لهذا السّبب الأساسي قال إبن خلدون أن علم الكلام أضحى غير ضروري وإن كان مفيدا ، وفي هذا يقول :" إن علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم . إذ الملحدة والمبتدعة قد إنقرضوا ..والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودوّنوا ، والأدلة العقلية إنما إحتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا . وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزّه الباري عن كثير من إيهاماته وإطلاقه ...ولكن فائدته في آحاد الناس ، وطلبة العلم فائدة معتبرة ، إذ لا يحسن بحامل السنّة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها.